



المذاهب العقدية في المغرب الأوسط قبل سيادة الأشعرية

أ.د. محمد عبد الحليم بيشي

جامعة قطر

halimbichi@gmail.com

الملخص:

يهدف البحث إلى الكشف الخارطة الإجمالية للمذاهب العقدية التي سادت وانتشرت في المغرب الأوسط قبيل سيادة الأشعرية في القرن الخامس الهجري، والتنقيب عن أهم رجالها ومنظريها، ومواطنها ومشاريعها، وتتبع حركات الانقلاب المذهبي، والغاية من ذلك كله فهم تعلّات الانتصار الأشعري على بقية المذاهب فيما بعد، وتنصب الإشكالية بالأساس على الإخراج العلمي لخارطة كلية للمذاهب العقدية الأولى في المغرب الأوسط، وتتبع حركات الانقلاب الفرقي والتغيرات المذهبية، وفهم الأسباب والعوامل التي دفعت بالجزائر إلى شبه واحدة مذهبية، وسنعمد المنهج الوصفي التاريخي، والتحليلي النقدي لبعض المكتوبات والمأثورات، فالأول في قراءة الوقائع وتركيبها، والثاني في قراءة النصوص واستنطاقها. مستصحبين قراءة المدونات الأصيلة وتاريخ المدن والخطط والمسالك والبلدان، إضافة إلى المدونات الفقهية والعقدية والنوازل، وكتب الجدل الكلامي. وستتمد مساحة البحث من منتصف القرن الثاني الهجري إلى بدايات الدولة الحمادية حيث انتهت السلطة العلمية لصالح الأشاعرة. وخلص البحث إلى التماهي المبكر بين الغرب الإسلامي والمشرق في تلقف الآراء العقدية وتحويلها إلى مشاريع سياسية، كما كشف عن عمق العلائق الثقافية بين المغرب الثلاث الأدي والأوسط والأقصى وحتى الأندلس، هذا فضلا عن التأثير البالغ لانتشار المالكية التي هيأت المجال لاحتضان الأشعرية مذهباً عقدياً للساكنة، مع استصحاب خفوت الحدة المذهبية حيال المذاهب المعتدلة كالإباضية التي لم ينلها العسف أو التجريف المذهبي إلا لماماً، كما حصل للإسماعيلية التي فرضت نفسها بالعسف والإكراه في الغالب. وكذا اندثار بعض المذاهب بفعل التقاؤل والجدل وغياب الظهير السياسي أو انحساره كما هو الأمر مع المعتزلة والصفيرية.

الكلمات المفتاحية: (المذاهب العقدية، المغرب الأوسط، الاعتزال، الإباضية، الإسماعيلية، المالكية).

The theological schools in central Maghreb before the dominance of Ash'arism.

Dr. Mohammed Abdel Halim Bichi. Qatar University.

Abstract

This study investigates the theological schools that flourished in the central Maghreb prior to the ascendancy of Ash'arism in the 5th century Hijri. It examines leading figures, intellectual currents, and regional dynamics, while tracing the doctrinal transformations that ultimately led to the predominance of Ash'arism. The

research applies descriptive historical and critical analytical methods, combining the study of events and texts with an examination of original manuscripts, city records, and theological, juridical, and disputational writings. The period covered extends from the mid-2nd century Hijri to the early Hammadid era, when scholarly authority shifted decisively toward Ash'arism. Findings reveal early intellectual convergence between the Islamic West and East in adapting doctrinal opinions into political projects. The study highlights strong cultural and scholarly links among the three Maghrebi regions and Andalusia, as well as the crucial role of Maliki jurisprudence in facilitating Ash'arism's acceptance as the dominant doctrinal stance. It also underscores the relative tolerance extended to Ibadī communities, which faced limited suppression compared to the Ismailis, who often endured coercion. Meanwhile, schools such as the Mu'tazila and the Saffarites declined largely due to internal disputes or lack of political support. Overall, the research provides a comprehensive overview of Algeria's theological landscape before Ash'arism's consolidation, illustrating the interplay of scholarship, politics, and jurisprudence in shaping the region's doctrinal identity.

Keywords: Theological schools, central Maghreb, Mu'tazila, Ibadism, Ismailism, Maliki's.

المقدمة

بسم الله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد صاحب الأنوار، وآله الأطهار، وصحبه الأبرار وحزبه الأخيار. صلاة وسلاماً تامين كاملين عدد قطر الأمطار وموج البحار ما دام الليل و ما دام النهار.

توطئة: لا تزال الدراسات محتشمة في التنقيب عن بواكير الآراء الفكرية والخارطة المذهبية العقديّة للمغرب الأوسط مع انبلاج فجر التاريخ به بعد الفتح الإسلامي الذي أعاد البلاد إلى مسرح الحضارة والعطاء، واستنقذها من حمأ الجاهلية التي كانت تحياها في الممالك النوميديّة المختلفة التي تراوح تدينها بين الوثنية والديانات المحليّة والمجاورة، وظلت لقرون سبعة كاملة تواجه النير الروماني والوندالي والبيزنطي، والذي تمكن تباعاً من سلب البربر حريتهم، وأدخل عليهم في نهايات العهد الروماني المسيحية ديناً مفروضاً بحد السيف. ولكن ذلك الإرث كله انتهى بشروق شمس الإيمان بكتائب الصحابة والتابعين الذين أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فدخل البربر في دين الله أفواجاً، ولم ينصرم النصف الأول من القرن الثاني حتى صار البربر كلهم من القالين للأديان السابقة، وانتالوا يخدمون الإسلام جذلين، ويحملونه إلى الأندلس فاتحين.

ولم يطل العهد حتى كان التثاقف والتماهي مع الحراك الفكري العقدي والفقهية والسياسي مع المشرق، والذي وفد منه الدعاة والفقهاء والمغامرون حاملين معهم بعض أنوية المذاهب والآراء، وسرعان ما تلقفت البيئة المغربية ذلك كله، فنشأت مذاهب

وتكونت دول، وتشكلت خارطة مذهبية كان لها الأثر الكبير في المسار الحضاري لبلدان المغرب الثلاثة (الأدنى، الأوسط، الأقصى)، وأخيرا الأندلس ثم إفريقيا جنوب الصحراء.

الأهداف: تنغيا الورقة المقدمة الإسهام في كشف الخارطة الإجمالية للمذاهب العقديّة التي سادت وانتشرت في المغرب الأوسط قبيل سيادة الأشعرية في القرن الخامس الهجري، والتنقيب عن أهم رجالاتها ومنظريها، ومواطنها ومشاريعها، وتتبع حركات الانقلاب المذهبي، والغاية من ذلك كله فهم تعلّات الانتصار الأشعري على بقية المذاهب، إضافة إلى الكشف عن شبكة العلاقات العلمية الناشئة بين الجزائر والمغرب المجاورة.

الإشكالية: تنصب الإشكالية بالأساس على الإخراج العلمي لخريطة كلية للمذاهب العقديّة في الجزائر في صورة مقارنة للحقيقة التاريخية، وتتبع حركات الانقلاب الفرقي والتموج المذهبي، وفهم الأسباب والعوامل التي دفعت بالجزائر إلى شبه واحدة مذهبية لم تشذ عن بقية ما حصل في المغرب الثلاثة والأندلس.

المنهج: ستعتمد الورقة المنهجين الوصفي التاريخي، والتحليلي النقدي لمختلف المكتوبات والمأثورات، فالأول في قراءة الوقائع وتركيبها، والثاني في قراءة النصوص واستنطاقها، وهي تنغيا بناء سردية مكينة لهذا الموضوع الشائك الذي لم ينفك محل مقالة بين الباحثين. -المصادر: مصادر الورقة مستمدة من كتب التراجم والطبقات والفهارس والأثبات، وتاريخ المدن والخطط والمسالك والبلدان، إضافة إلى المدونات الفقهية والعقدية، وبعض كتب الجدل الكلامي.

وسيظل الأمر متعسرا مع شخّ المصادر المتقدمة، اللهم إلا ما رشح من مكتوبات المذهبين الإباضي والإسماعيلي، في حين تبقى مصادر المالكية الأولى قليلة، وبالأحرى الصفرية، ولكننا لا نعدم بعض المصادر المجايلة أو اللاحقة من مدرسة القيروان، أو من بعض الشذرات واللمحات التي بقيت في الكتب المتأخرة.

أما المساحة التي تحدّ البحث فهي من منتصف القرن الثاني الهجري إلى بدايات الدولة الحمادية مطلع القرن الخامس. حيث بدأ انزياح المذاهب الأخرى، وبدأ القول العلمي الأشعري يباشر اكتساح المراكز العلمية.

الدراسات السابقة:

وأكثرها خاص بالمذهبين الإباضي والإسماعيلي، نحو دراسات موسى لقبال وبوبة مجاني، وعلاوة عمارة وإبراهيم بحاز، مع قلة الدراسات عن المذهب الزيدي والصفرية والمالكية المبكر، ومن الدراسات في الموضوع:

- شافعي محمد عبد اللطيف، الأشعرية في الغرب الإسلامي من بداية القرن الرابع الهجري إلى سقوط دولة المرابطين، دكتوراه بقسم العقائد والأديان، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1، سنة (2019-2020).

- محمد نصير، تطور الأشعرية بالمغرب الأوسط الحمادي، أطروحة دكتوراه بجامعة عبد الحميد مهري قسنطينة سنة (2021-2022). ومن الأبحاث المسعفة في الموضوع، وخاصة في استرجاع الجدل والمقالات، وقيمتها العلمية أنهما فحصتا مسارب الأشعرية للمغرب الأوسط، وأعطتا لمحات كثيرة عن المذاهب الأخرى.

- زقاوي محمد، المناظرات بين الإباضية والمعتزلة ببلاد الغرب الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس من المصادر الإباضية، مجلة العبر للدراسات التاريخية، جامعة ابن خلدون تيارت، العدد 2 (2018).

- فاطمة بلهوار، الشيعة الإسماعيلية وأسلوب نشر مذهبهم في بلاد المغرب خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، مجلة عصور، جامعة وهران، المجلد 21، عدد 2، (2022).

وستكون الخطاطة الأولى للبحث في الآتي:

المبحث الأول: الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط ونتائجه.

المبحث الأول: الاعتزال في المغرب الأوسط.

المبحث الثاني: المذهب الإباضي.

المبحث الثالث: المذهب الصفري.

المبحث الرابع: المذهب الإسماعيلي الشيعي.

المبحث الخامس: المذهب الزيدي.

المبحث السادس: المذهب السني المالكي.

المبحث الأول: الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط ونتائجه.

استقبل المغرب الأوسط الفتح الإسلامي أيام الأمويين بسياسات تراوحت بين القبول والاحتضان، وبين الرفض والمقاومة بتأثير من المحتمل القائم وهي الدولة البيزنطية التي ظهرت بعض الزعامات المحلية التي كان مختلفه الوجيهات والتوجهات الدينية، فقد كانت الخريطة الدينية غامضة المعالم وهشة الحدود بين الديانات المسيحية والوثنية وبعض من يدين باليهودية والمجوسية، وشهدنا مقاومات متفاوتة، ولكنها سرعان ما انكسرت سريعاً أمام جيوش الفتح مثل كسيلة مع عقبة بن نافع، ثم الكاهنة مع حسان بن النعمان⁽¹⁾.

وعلى الرغم من تعثر الفتح الأول في الحملات الأولى، إلا أن انتشار الإسلام كان دافقاً، واستقره في المغرب الأوسط كان مكيناً، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة منها تقارب الوضع الاجتماعي بين الوافد العربي والمستقبل البربري من حيث غلبة البداوة، فقد كانت زناتة- وهي جمهور بربر المغرب الأوسط- بدوية في الأغلب، ويقرب منها صنهاجة الشمال وكتامة ساكنو الجبال والسهول، إضافة إلى الحضور اللاتح للجدور الفينيقية للثقافة البربرية، وكذا وجود بعض العلاقات القديمة بين بعض الزعامات البربرية مثل أمير مغراوة "صولات بن وزمار" والمسلمين من أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه⁽²⁾.

سارت الفتوحات بتؤدة على الرغم من التعثر المفاجئ المزامن لمقتل عقبة بن نافع في تمودة بنواحي بسكرة سنة (63 هـ) مكينا، ولكنها سرعان ما انطلقت من عقابها بجهود حسان بن النعمان، فاستقر الإسلام، ودان البربر به، ومن المعلوم سلفاً أن الفاتح الكبير عقبة بن نافع رافقه معلمون لنشر الإسلام، ومع أيام موسى بن نصير (89 هـ)، الذي استتب به الأمر وتوطد الدين، وخلف سبعة عشر معلماً فقيهاً لذات الغرض، وفي ذات المنوال مازح موسى بن نصير بين سياسة تجنيد البربر وتعليمهم، كما حصل عند تولية طارق بن زيادة أعمال طنجة، فقد: "جعل معه جيشاً كثيفاً جلمهم من البربر، وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض"⁽⁴⁾. ثم كانت البعثة الميمونة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز⁽⁵⁾، ورأسها التابعي الكبير إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (ت 131 هـ)⁽⁶⁾. وقامت بدور ماثور في بث العلم ونشر الرواية وتأسيس تقاليد علمية في الجوامع. ونشأت تباعاً بعض المراكز العلمية في المدن المؤسسة أو المفتوحة في المغرب الأوسط، مثل:

(1) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3 ص 207. ج 3 ص 417.

(2) انظر تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 141.

(3) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج 4 ص 527. تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 193.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4 ص 21.

(5) ابن عذراي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 1 ص 45..

(6) انظر طبقات أبي العرب ص 84. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 1 ص 160

- مدينة ميله: حيث كانت المستقر الأول وعاصمة الفتح في أيام أبي المهاجر دينار الذي أسس بها مسجدا⁽¹⁾.
 - الزاب: تهودة التي أوى إليها بقايا رجال جيش عقبة، وتأسس بها مسجد، ثم نشأ مسجد جامع آخر بسكرة⁽²⁾.
 - تلمسان، والتي نشأ بها مسجد جامع أيضا، واشتهر أيضا بخلق العلم والرواية من أيام إمارة السليمانيين. حيث قام محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل أمير تلمسان، فأتم نشر الإسلام فيما تبقى من أعماق المغرب الأوسط، وخاصة جبال مليانة (مذكورة)، وأطبقت كل الجزائر على الإسلام دينا أوحدًا.
 وربما كان التخلف عن هذا النشاط الإسلامي ببلاد المغرب الأقصى التي بقيت بعض جيوبها في الأطلس الكبير وبلاد السوس على ديانتها القديمة، إلا أن إدريس الأكبر استدرك ذلك: "فاتخذ جيشا كثيفا من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم وخرج غازيا بلاد تامسنا ثم زحف إلى بلاد تادلا، ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر أهل هذه البلاد لا زالوا على دين اليهودية والنصرانية وإنما الإسلام بها قليل فأسلم جميعهم على يده"⁽³⁾.
 ثم جاء مسح ما بقي من ديانات أو طوائف محلية في المغرب الأقصى مع المرابطين الذين قضوا قضاء مبرما على نحلة برغواطة، في حين تم هذا التطهير لبقايا الوثنية في المغرب الأوسط كله منذ أواسط القرن الثاني.
 وإلى هذا يذهب المستشرق ألفرد بل بقوله: "القرن الثالث الهجري هو الذي تم فيه نهائيا إسلام البربر، ويمكن لعدد كبير جدا منهم في ضواحي المدن والعواصم الكبرى للإسلام مثل فاس وتلمسان في المغرب"⁽⁴⁾.
 ومع هذا الاستقرار والانتصار الكلي للإسلام في القرن الثاني الهجري، بدأ الثقاف والتواصل مع المذاهب السياسية والعقدية في المشرق الإسلام بعوامل الهجرة والحج والفرار عن مراكز الخلافة الأموية والعباسية.
 فعرفت الجزائر مذاهب مختلفة، بل ومتنافرة الوجهة، واستلزم تغيير الواجهة المذهبية والصبورية إلى ما يشبه الواحدة ممثلة في المالكية الأشعرية مدة طويلة، وكان لهذا التغيير أسبابه ودواعيه التي هي قمينه بالبحث والتنقيب في كتب السير والطبقات والمدن والجغرافيا والرحلات، إضافة إلى صميم التعلات في كتب الجدل والردود، ويمكن أن نلخص خريطة المذاهب في التاريخ الجزائري في مقارنة أولية في هذا الجدول:

التاريخ	المذاهب العقدية في الجزائر
القرن الأول الهجري	قرن الفتوحات، واستقرار الإسلام، وانحياز الوثنية، وضمور المسيحية واليهودية.
القرن الثاني إلى منتصف الثالث	هيمنة المذهب الإباضي، ووجود معتبر للمذهب الصفري والمعتزلي، والزبيدي في الإمارات السليمانية. ووجود جزئي للأحناف في مناطق الزيبان (تهودة). وبدايات التواصل والتلمذ للمالكية القيروان.
القرن الثالث إلى منتصف الرابع	سيطرة المذهب الإسماعيلي في الشرق والوسط، وتراجع المذهب الإباضي، وتوسع المالكية. وخفوت الاعتزال وضمور المذهب الصفري والزبيدي.
القرن الخامس	ظهور المالكية في كل الشمال، وانحياز الإسماعيلية، والجنوب الشرقي إباضي.

(1) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج 2 ص 217.

(2) البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 714.

(3) السلاوي، الاستقصا، ج 1 ص 212.

(4) ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 102.

المذاهب العقدية في المغرب الأوسط قبل سيادة الأشعرية

القرون: 6-7-8-9	سيادة الأشعرية، والقرن التاسع هو القرن الذهبي في الإنتاج الأشعري.
القرن العاشر	سيادة الأشعرية، الإباضية في ميزاب وورجلان، بعض الفرق المنحرفة مثل اليوسفية.
القرن 11-12	الأشعرية، وجود ضئيل للماتريديّة مع الأتراك، هيمنة الطرق الصوفية.
القرن 13	الجزائر مالكية أشعرية، الإباضية في ميزاب، دخول الوهابية جزئياً، التبشير المسيحي.

توزعت بعض المذاهب العقدية والسياسية بلاد المغرب الأوسط قبيل سيادة الأشعرية، ولكن الملاحظ أنه لم يتم لأحد منها السيادة والهيمنة الكاملة على المغرب الأوسط، اللهم إلا في أيام التصاقها بالدول المناصرة لتلك المذاهب، كالإباضي بالنسبة للرسومية، والإسماعيلي بالنسبة للدولة الفاطمية، ولكن القول الأوسط في هذا القول بتجاور هذه المذاهب مع المذهب المالكي الذي بدأت أقدامه تتسرخ بفضل مدرسة القيروان والتثاقف مع الأندلس الأموية المالكية، ويمكن القول بأن المذاهب التي كانت لها الصولة في المغرب الأوسط في القرون الهجرية الثلاثة الأولى هي: الاعتزال، الإباضية، الزيدية، الصفرية، الشيعة الإسماعيلية، المالكية، ويمكن عرض خريطة تقريبية لذلك في الآتي:

المبحث الأول: الاعتزال في المغرب الأوسط.

دلف الاعتزال إلى المغرب الأوسط من المشرق، ومن البوابة القريبة تونس حيث كانت سلطة الأغلبة التابعين للعباسيين الذين سيطر المعتزلة على مقاليد والقضاء في أيام خلفائهم الكبار (المأمون، المعتصم، الواثق)، وقد اختلف الوجود الاعتزالي الواسلي في مناطق المغرب الإسلامي والأندلس تبعاً لعوامل السياسة والتحضر والتجارة، فإننا نجد وجود كثيفاً في المغرب الأدنى، يتلوه الأوسط، ثم الأقصى. في حين كان الحضور في الأندلس خافتاً نظراً لقوة المالكية أيام الأمويين⁽¹⁾. ويمكن أن نذكر المناطق التي عاش فيها المذهب في الآتي:

أ- مضارب زناتة: القبيلة الأهم والأكبر في الجزائر، حيث انتشر الاعتزال الواسلي عند بعض البطون الزناتية استجابة للمقالات السياسية للمعتزلة⁽²⁾ وفي هذا يقول ابن حوقل: "وتجاورهم من البربر زناتة ومزاتة قبيلتان عظيمتان الغالب عليهما الاعتزال من أصحاب واصل بن عطاء⁽³⁾. كما ينقل الرحالة البكري ذلك الحضور القوي للمعتزلة في المغرب الأوسط: "وكان مجمع الواسلية قريباً من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفاً في بيوت يحملونها كبيوت الأعراب"⁽⁴⁾. وأما ياقوت الحموي فذكر نفس الوصف من حيث القوة العددية للواسلية⁽⁵⁾. والظاهر أنهم جدّوا في الانقلاب على سلطة الرستميّين في تيهرت، وحاولوا الانسلاخ من حكمهم عقب الصراع على الخلافة في مجلس الشورى الإباضي أيام الإمام عبد الوهاب⁽⁶⁾.

(1) انظر محمد عبد الحليم بيّشي، الاعتزال في الغرب الإسلامي، مجلة البحوث، جامعة الجزائر 1، العدد 9، جوان 2016.

(2) عبد الرحمان بشير، الفقيه والسلطان الفقهاء والاعتزال والدولة في المغرب الإسلامي، ص 102.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ج 1 ص 94.

(4) البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 735.

(5) ياقوت الحموي، كتاب البلدان، ج 2 ص 8.

(6) انظر أبو العباس الشماخي، كتاب السير، ج 2 ص 281.

ب-الإمارات السليمانية في تلمسان وغيرها: انتشر الاعتزال في بعض الإمارات السليمانية الإدريسية بالمغرب الأوسط مبكراً⁽¹⁾، إذ المعروف أن إدريس بن عبد الله الكامل كان يدين بمقلات عمه زيد الذي تلمذ لواصل بن عطاء، وذكر الشهرستاني: "وبالمغرب منهم شردمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني الذي خرج بالمغرب أيام أبي جعفر المنصور يقال لهم الواصلية"⁽²⁾.

وقد كانت المناظرات تترى داخل المجتمع الرستمي من قبل الواصلية المقيمين معهم وفي الإمارات السليمانية⁽³⁾، كما نقل شيئاً من ذلك البرادي في الجواهر المنتقاة عن مناظرة وقعت بنهر مينة (غليزان) بين زعيم المعتزلة ومتكلم الإباضية ابن اللمطي⁽⁴⁾. ج-الزباب الجزائري: حيث يذكر الرحالة والجغرافيون وجوداً ملحوظاً للمذهب الحنفي بتهدوء بالزباب الشرقي، والواصلية بينطوس⁽⁵⁾، مما يستصحب بالضرورة وجوداً لرجال الاعتزال، فقد كان الغالب على أحناف تونس الاعتزال.

د بلاد مصاب: في بوابة الصحراء الجزائرية، حيث تشير الشذرات إلى انتشار الاعتزال في بلاد مصاب وبادية بني بادين، ويرجع البعض ذلك إلى جهود الدعاة الأدارسة الفارين من المغرب وتلمسان بعد اختيار الدولة الإدريسية والإمارات السليمانية بسيوف الفاطميين وحلفائهم. ودلائل الوجود الواصلية كثيرة منها وجود مقبرة للواصلية في وادي ميزاب. وفي هذا يقول مؤرخ وادي ميزاب وعالمها القطب الشيخ اطفيش: "ليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول مرة، بل كانوا معتزلة يسافرون إلى تيهرت لقتال الإباضية، وكانت المعتزلة أقوىاء في هذا المغرب إلى تيهرت"⁽⁶⁾. ويؤكد ذلك الشيخ حمو النوري "كان وادي ميزاب قبل استيطان الإباضية له أهلاً بالسكان المعتزلة الواصلين، وكان يسكن العطف فريق من المعتزلة الواصلين.. ومقبرة الواصلين مشهورة كذلك"⁽⁷⁾ ويصف الشاعر مفدي زكريا في تاريخه للحياة الاجتماعية الوضع العقائدي ببلاد مصاب بقوله: "وقصارى علمنا هو أن الحياة قد اطمأنت هناك لأناس اطمئناناً جعلهم يؤثرون البحث العقلي حتى برعوا في الكلام والجدل منزع الاعتزال، فكان من سكانها ودعاها جادلوا على مذهب المعتزلة، فنعت في كتب علم الكلام الإباضية على آثار مناقشتهم وآرائهم، ومن أبرز هؤلاء عيسى بن عبد الجبار"⁽⁸⁾.

هـ- تيهرت: تشير المصادر المتقدمة إلى وجود ملحوظ للمعتزلة في تيهرت عاصمة الرستميين الوهيبية، حضور ارتبط بنشاط دعوي ظاهر للمذهب، بل ومنافحة عنه ومجادلة للخصوم، حيث سادت أجواء التسامح والحريات الفكرية في الدولة، كما هي شهادة المؤرخ ابن الصغير المالكي: "وكانت مساجدهم عامرة وجامعهم يجتمعون فيه وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئاً.. ومن أتى الإباضية من غيرهم قريبه وناظره أطف منظره، وكذلك من أتى إلى الإباضية إلى خلق غيرهم كان سبيله كذلك"⁽⁹⁾. وقد وصف في تاريخه

(1) بملولي سليمان، الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط، ص 239.

(2) الشهرستاني أبو الفتح، الملل والنحل، ج 1 ص 46.

(3) مثل تنس، قال البكري: "وأصحاب تنس من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي (بن أبي طالب)"، المسالك والممالك، ج 2 ص 726.

(4) البرادي أبو القاسم، الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات، ص 199.

(5) البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 740. غير أنه لا يميز بين الواصلية والإباضية ويجعلهما واحداً: "والثالث لقوم من الخوارج يعرفون بالواصلية إباضية". وانظر إسماعيل سامعي، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى الخامس الهجري، ص 61.

(6) اطفيش محمد بن يوسف، الرسالة الشافية في بعض التواريخ- طبع الحاج بكير بن الحاج قاسم، الجزائر، ص 24.

(7) حمو عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديماً وحديثاً، ج 1 ص 56.

(8) مفدي زكريا، أضواء على وادي ميزاب، ص 72. إبراهيم مجاز، الميزابيون المعتزلة قراءة جديدة لنصوص قديمة، الجزائر، مجلة الحياة، العدد 1، 1998.

(9) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص 102.

بعض مناظرات الواصليّة مع الإباضية في قضايا العدل والتوحيد، ويعضد شهادته أيضا المؤرخ أبو زكريا الإباضي في سيره⁽¹⁾. والشواهد على وجود الاعتزال وخاصة مقالاته السياسية في المغرب الأوسط كثيرة جدا، وسيكون لها الأثر في المدونات العقديّة الإباضية.

المبحث الثاني: المذهب الإباضي.

المذهب الذي بدء من البصرة، وانتقل دعائه إلى بلاد المغرب، وتمكنوا من نشره في أوساط البربر من زناتة خاصة، وأنشأوا أول إمارة مستقلة على يد أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري بليبيا(140-144)⁽²⁾، ثم أسسوا الدولة الرستمية في الجزائر وعاصمتها تيهرت سنة (160)⁽³⁾، وكان الذي تولى مهام التأسيس عبد الرحمان بن رستم إلى أن توفي عام (171)⁽⁴⁾، وترك الأمر شورى بين سبعة اختاروا ابنه عبد الوهاب (ت 208) الذي تناسل أئمة الإباضية بعده في حكم الدولة، وكان هذا الاختيار المنافي لآراء الإباضية الأوائل في عدم التوريث مدعاة لانقسام الفرقة إلى وهبية، وأخرى نكارية تزعمها يزيد بن فندين⁽⁵⁾، ويسمون ب(النكار، النكات، النجوية، الشعبية نسبة إلى شعيب بن المعرف)، وأعلنوا الثورة ضد عبد الوهاب الذي قضى عليهم عسكريا، ولكنهم ظلوا يهددون دولة، ويشغبون على مخالفيهم، إلا أن السلطة كانت متعاضدة، وتمكنت من اجتياز الهزات⁽⁶⁾، وجلبت الرخاء والاستقرار حينما من الزمن إلى أن سقطت على يد الفاطميين سنة (296هـ)⁽⁷⁾.

كما شهدت الجزائر وجودا لفرق إباضية أخرى، كفرقة السكاكية المنسوبة لعبد الله السكاكي اللواتي الذي اشتهر عنه رد السنة النبوية⁽⁸⁾.

وحركة خلف بن السمح بن أبي الخطاب الزعيم الأول للإباضية، وعرفت حركته بالخلفية⁽⁹⁾، وقد هزت أركان الدولة في شرقها، وتحولت إلى حركة انفصالية واستفحل أمرها في دبر أيام عبد الوهاب وابنه أفلح⁽¹⁰⁾.

(1) انظر: أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص 106. الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج 1، ص 62. إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ص 337.

(2) انظر علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، الإباضية في ليبيا، ص 162. 165. محمد ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص 153.

(3) عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العهد الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، ص 118.

(4) انظر: أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج 1 ص 42. أبو زكريا، سير الأئمة وأخبارهم، ص 81. الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2 ص 71. إبراهيم بحاز، الدولة الرسمية، ص 92-94.

(5) انظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص 37. علي يحيى معمر، الإباضية في الجزائر، المطبعة العربية، غرداية، 1986، ص 26.. وقد ثار سنوات (172-174)، وقتل وأصحابه في مقتلة عظيمة (12 ألف)، انظر أبو زكريا، سير الأئمة، ص 96. عمار طالبي، آراء الخوارج الكلامية، ج 2 ص 258. وكانت الخصومة الفكرية والسياسية بين الوهبية والنكار شديدة حتى شاع في الأدبيات الوهبية: "إذا أصبحت ولم تجد ما تصدق به، فألعن النكار". الشماخي، كتاب السير، ج 2 ص 274.

(6) ومن ذلك ثورة يعقوب بن أفلح ضد ابن أخيه الإمام أبي حاتم سنة (282هـ)، مما اضطره للخروج من تيهرت، وبويع لعنه يعقوب لأربع سنوات، ثم خلعت العامة وطرده إلى نواحي طرابلس. انظر الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج 1 ص 233.

(7) انظر الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 128-137.

(8) يحيى أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، (تحقيق عبد الرحمان أيوب)، ج 1، ص 91. مصطفى ابن دريسو، الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص 248.

(9) انظر ابن الصغير، نفسه، ص 69. أبو زكريا، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص 119.

(10) محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، ص 163.

وحركة نفاث بن نصر النفوسي التي عرفت بالنفائية، وعرفت هذه الفرق نقاشا مع الوهبية، ومع المالكية في كل من المغربين الأدنى والأوسط⁽¹⁾.

وكان للإباضية وجود مشهود بالأوراس⁽²⁾، والجريد التونسي، وفي ذلك نقراً توصيف ابن حوقل: "فأما أهل قسطيلية وقفصة ونفطة والحامة وسماطة وبشرى وأهل جبل نفوسة فشرارة، إقنا إباضية من أصحاب عبد الله بن إباض، أو وهبية من أصحاب عبد الله بن وهب"⁽³⁾.

برز من الإباضية وهبية كانوا أو نكارا علماء ومتكلمون مقتدرون أمثال: هود بن محكم الهواري (ق 3هـ)، وأبو الربيع المزاتي (417هـ) صاحب كتاب التحفة المخزونة، وأبا عبدة الأعرج⁽⁴⁾: وعمروس بن فتح النفوسي صاحب "كتاب أصول الدينونة الصافية"⁽⁵⁾، وأبو محمد عبد الله بن محمد الفزاري النكاري صاحب كتاب "القدر"، و"الرد على عيسى بن عمير" الذي تنسب إليه الفرقة العمرية المتهممة بالاقتراب من المعتزلة⁽⁶⁾، وعبد الله بن يزيد الفزاري (ق 3هـ)، صاحب كتاب "الرد على الروافض"⁽⁷⁾، والشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي مؤسس حلقة العزابة ودفين وادي ريغ (345-440هـ)، والذي كانت له جهود في ثني سكان وادي مصاب عن الاعتزال والتحول للإباضية⁽⁸⁾.

المبحث الثالث: المذهب الصفري.

يعود انتشاره لدعاة الصفرية الذين وفدوا من المشرق بعد انهيار حركتهم هناك وهزيمة شبيب بن يزيد أمام الحجاج سنة (77هـ)⁽⁹⁾، ويقال بأن رأس الدعاة إليه هو عكرمة البريري مولى ابن عباس رضي الله عنه، والذي قدم المغرب مع سلمة بن سعد داعية للإباضية⁽¹⁰⁾، حيث لم يكن بين الفرقتين كبير اختلاف، فكلاهما محسوب على القعدة، في حين كانت الأزارقة والنجيدات من المحكمة، وقد نجح عكرمة وغيره في تكوين جماعات صفرية بالقيروان. وقد ذكر بأن سحنون شرّد جماعات الإباضية والصفرية من التحلق بجامع القيروان، فهو "أول القضاة فرق حلق أهل

(1) انظر مصطفى ابن دريسو، الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص 243. 248.

(2) فلهم إمارة بجبل هواره يحكمها ابن مسالة الإباضي، وكانت في نزاع مع الرستميين. انظر الكعك، نفسه، ص 121.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ج 1 ص 96. الظاهر أن ابن حوقل ينسب الوهبية إلى عبد الله بن وهب الراسبي، وهو توصيف إباضية المشرق. أو هو لا يفرق بين النكار والوهبية، فقد كان للنكار نفوذ في الجريد وجربة وشمال نفوسة على ساحل ليبيا.

(4) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، 83-84. الشماخي، السير، ص 190.

(5) حققه حاج هو أحمد كروم، عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 1999. وانظر الدرجيني، ج 2 ص 214.

(6) ابن ادريسو، الفكر العقدي عند الإباضية، ص 256. وعند ابن الصغير أنهم فرقة تسمى العمرية نسبة إلى عيسى بن عمير ومن بعده أحمد بن الحسين، ابن الصغير، نفسه، ص 38. في حين يسميهم أبو زكريا بالعمرائية، وأهم يسندون مذهبهم إلى عبد الله بن مسعود. ص 88. الدرجيني، طبقات المشايخ، ج 1 ص 47.

(7) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج 1 ص 42، ج 2 ص 477. النامي، دراسات عن الإباضية، ص 190.

(8) انظر محمد بن يوسف اطفيش، الرسالة الشافية، ص 38.

(9) تاريخ الطبري، (حوادث 77هـ)، ج 6 ص 257.

(10) الشماخي، طبقات المشايخ، ج 1 ص 11. أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، ص 83. ولم يشر إلى كونه دخل داعية، وإنما ذكر بأن له مجلسا بجامع القيروان. دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج 2 ص 279.

البدع، وشرذ أهل الأهواء منه. وكانوا فيه حلقاً. من الصفرية والإباضية المغيرية، وكانوا فيه حلقاً. يتناظرون فيه. ويظهرون زيفهم. وعزلهم أن يكونوا أئمة للناس، أو معلمين لصبيانهم. أو مؤذنين. وأمرهم أن لا يجتمعوا. وأدب جماعة منهم بعد هذا"⁽¹⁾.

وذكر من أوائلهم أبو الخطاب الكندي الذي روى عنه سفيان الثوري، وكان يقول عن نفسه: إن له أربعين سنة لم يخرج طوقه من عنقه اشتغالا بالصلاة والعبادة، وكان يرمى بهوى الصفرية"⁽²⁾. وكذلك معاوية الصمادحي (ت 199هـ) والد أبي جعفر موسى، فقد كان يرمى أيضا بهوى المذهب الصفري"⁽³⁾،

وكانت شوكتهم قوية في نواحي الغرب الإسلامي وخاصة الغرب منه، وقادوا ثورات كثيرة بعد فشل مساعيهم في حمل مركز الخلافة الأموية على محاسبة العمال والولاة"⁽⁴⁾، فيما عرف بحروب ميسرة المطغري الصفري"⁽⁵⁾، ثم خالد بن حميد الزناتي، وأوقعوا بجند الخلافة الأموية هزيمة نكراء فيما يعرف بواقعة الأشراف قرب نهر الشلف سنة (123) "⁽⁶⁾، وبعد ذلك علا أمرهم حتى أنهم هاجموا القيروان في ثلاثمائة ألف من البربر، وتمكن أهل القيروان من هزيمتهم وهم اثنا عشر ألفاً في واقعة القرن، ثم انكسروا أمام جند الخلافة الأموية في واقعة الأصرام بقيادة حنظلة بن صفوان سنة (125هـ)⁽⁷⁾، وكانت نتائج تلك الثورات التي سادتها روح غير أخلاقية"⁽⁸⁾ هي إرهاب المغرب، حتى غاب الأمن واختل العمران، وفي كل ذلك تمكن الصفرية في المغرب الأوسط من تأسيس إمارتين مؤقتتين، ودولة ثالثة كاملة الأركان بالجنوب في سجلماسة.

إ-إمارة تلمسان : أول إمارة صفرية أسسها خالد بن حميد زعيم زنانة، وقد خلفه عليها أبو قرّة بن دانوس المغيلي اليفرنى الصفري (122-164هـ)⁽⁹⁾، والذي تمكن من جمع صفرية الغرب، وحشد قواهم لإقامة هذه الإمارة التي

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 4 ص 60.

(2) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، ص 169. وفي رياض النفوس انفراداً بأن اسمه عبد الخطاب محمد بن أبي الأعلى الكندي، ترجمة (100)، ج 2 ص 251. ولعله يقصد ذات أبي الخطاب أول إمام للإباضية، والذي قتل سنة (144هـ).

(3) ترتيب المدارك، ج 4 ص 94.

(4) يقال إن ذلك بسبب تجاوزات والي عبید الله بن الحبحاب الذي أراد تخميس البربر. انظر ابن عذاري، ج 1 ص 48.

(5) ميسرة المطغري الذي كان يلقب بالسقاء والحفير، وهناك من يلقبه بالفقير والحقير خطأ من شأنه، رأس الوفد البربري المتظم عند الخليفة هشام بن عبد الملك، وعند عودتهم خائبين أعلن الثورة على عبید الله بن الحبحاب سنة (122) بعد انصراف حبيب بن أبي عبيدة الفهري وجند الدولة لفتح صقلية. ودعي له بالخلافة، ثم قتل من قبل جماعته لتغير سيرته. انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1 ص 53. دبور، تاريخ المغرب الكبير، ج 2 ص 258.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1 ص 54.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1 ص 59. دبور، تاريخ المغرب الكبير، ج 2 ص 286.

(8) يذكر المؤرخون استحلال الصفرية للنساء والأولاد على غير مقتضى مذهبهم. انظر ابن عذاري، نفسه، ج 1 ص 59.

(9) تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 145. مجهول، مفاخر البربر، ص 141. عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج 2 ص 374. الكعك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 115.

لم تعمر طويلاً⁽¹⁾، وقد دعي له بالخلافة أربعين سنة منذ (148)، وتمكن من مد نفوذه شرقاً حتى أنه حاصر القيروان التي صالحته سنة (153هـ)⁽²⁾.

ب- إمارة ورفجومة: إمارة امتزج فيها المذهب الصفري بالبعد البريري، وانحرف أصحابها حتى أن زعيمهم عاصم بن جميل ادعى النبوة، وعندما حاصروا القيروان قتلوا كل ذي نسب قرشي، مما جعل خوارج المغرب يتبرأون منهم، وكانت أفعالها مدعاة لتحرك دعاة الإباضية لتنظيف المذهب الخارجي من هذه الانحرافات.

قال ابن خلدون: "ثم انهزم حبيب إلى أوراس، واتبعه عاصم، فاعترضه عبد الملك بن أبي الجعد وجموع نفزاوة الذين كانوا بالقيروان وقتلوه واستولت ورفجومة على القيروان وسائر إفريقية، وقتلوا من كان بها من قرش وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع، واشتد البلاء على أهل القيروان وأنكرت ذلك من فعل ورفجومة ومن إليهم من نفزاوة براءة طرابلس الإباضية من هوارة وزنانة، فخرجوا واجتمعوا إلى أبي الخطاب عليها واجتمع إليه سائر البربر الذين كانوا هنالك من زناتة وهوارة، وزحف بهم إلى القيروان فقتل عبد الملك بن أبي الجعد وسائر ورفجومة ونفزاوة"⁽³⁾، وهكذا تمكن أبو الخطاب ومن معه من إباضية نفوسة من تحرير القيروان سنة (141هـ)، وبسبب نشاط الإباضية داخل الجريد والأوراس تحلى هؤلاء عن هذا المذهب ودانوا بالإباضية⁽⁴⁾.

ولكن نجاح الصفرية الباهر كان بأقصى الجنوب فنجحوا مبكراً في تأسيس أول دولة لهم بسجلماصة البعيدة عن مراكز التأثير على يد عيسى بن يزيد المكناسي، ثم وطد أمرها أبو القاسم سمكو بن واسول سنة (140هـ)⁽⁵⁾، وكان عمادها قبيلة مكناسة، ونمت الدولة الوليدة، وكان لها نفوذ وامتداد في الجنوب الغربي الجزائري بفضل تجارة القوافل، ودخل الصفرية في خلاف مؤقت مع إخوانهم الإباضيين، انتهى بتوقيع هدنة ومصاهرة⁽⁶⁾، وكان بعض حكامها يجمعون بين المذهبين إلى أن قضى العبيديون على دولتهم سنة (296هـ)⁽⁷⁾.

والظاهر أنه كان لهم نفوذ في الجنوب الغربي والجنوب الجزائري، فقد غزا محمد بن ميمون (بن تقيّة) بن مدرار المنتصر بلاد القبلة (الجنوب الجزائري) وحكم مدينة تابلالت⁽⁸⁾ بتوات، كما أن تجارة القوافل مع قصور الأطلس الصحراوي

(1) انظر بجلولي، الإمارات السلمانية، ص 79.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1 ص 77. ابن الأثير، الكامل، ج 5 ص 169.

(3) تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 146. وانظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1 ص 70. الكامل في التاريخ، ج 4 ص 236.

(4) انظر محمد علي دبوبز، تاريخ المغرب الكبير، ج 2 ص 341.

(5) تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 172. ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ج 2 ص 351. البكري، المسالك والممالك، رقم (1397)، ج 2 ص 837.

(6) تزوج ميمون بن مدرار بن اليسع أروى بنت عبد الرحمان بن رستم. وكان يسمى ابن الرستمية. وتمذهب بالإباضية، وقام بثورات وقلقل في عهد أبيه في نواحي درعة، ثم حكم مدة حتى توفي سنة (263هـ)، انظر: تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 173.

(7) تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 173.

(8) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2 ص 253.

كانت نشيطة⁽¹⁾، بما يوحي بتمدد مذهبي فيها. ويذكر المليي والكعك وجودا للصفريّة في البلاد الصحراوية الغربية والوسطى كالأغواط وتيلغمت جنوب الأغواط، والأمر مستساغ في ظل العلائق مع إمارة أبي قرّة بتلمسان⁽²⁾.

جدول حكام بني مدرار			
الاسم	التولية	الانتهاء	الكيفية
عيسى بن يزيد المكناسي ⁽³⁾ .	140	155	تولى عن شوري، ثم عزل وقتل.
أبو القاسم سمكو بن واسول ⁽⁴⁾ المدرار	155	167	وفاة.
أبو الوزير إلياس بن أبي القاسم.	168	194	العزل لسوء السيرة.
اليسع بن أبي القاسم أبو منصور.	194	208	كان إباضيا صفريا.
مدرار بن اليسع المنتصر.	208	253	صهر عبد الرحمان بن رستم.
ميمون بن مدرار (ابن الرستمية)	253	263	فلاقل مع أبيه وأخيه ميمون بن تقيّة.
محمد بن ميمون (بن تقيّة) بن مدار.	263	270	غزا بلاد توات ومدينة تابلالت.
اليسع بن مدرار المنتصر بن اليسع.	270	296	قتله الفاطميون.

المبحث الرابع: المذهب الإسماعيلي الشيعي.

المذهب الذي جدّ دعائه في إيجاد موطن قدم لهم ببلاد المغرب، وتمّ لهم إطلاق الدعوة وزرع بذورها في الشرق الجزائري، حيث جاء دعائهم خفية وهما: "السفياني والحلواني، وقالوا لهما إن بالمغرب أرض بور فاذهبا إليها واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر. فنزل أحدهما مرماجنة، والآخر سوق حمار من ناحية قسنطينة. وبثا الإسماعيلية في الناس إلى أن توفيا"⁽⁵⁾، ولكن الداعية الأوفر حظا، والذي وطد للدولة هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد⁽⁶⁾ الذي تمكن بدهائه وبراعته

(1) العيفة شانيت، دولة بني مدرار بسجلماسة ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري، ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1990، ص 140.
(2) انظر مبارك المليي، تاريخ الجزائر، ج 2 ص 169. الكعك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 120.
(3) عند البكري أنه كان من الموالي (من السودان)، ويلقب بالأسود، المسالك والممالك، ج 2 ص 838.
(4) عند ابن الخطيب اسمه سمعون بن يزلان الزناتي، وأنه توفي سنة (199) بعد ان تولى أبو الخطاب الصفري أمر سجلماسة بعد قتل عيسى بن يزيد. ج 2 ص 352.
وعند ابن خلدون أنه كان إباضيا صفريا، ومات سنة (167)، وأنه خطب لخلفاء بني العباس، ولا ذكر لأبي الخطاب عنده، ج 6 ص 172.
(5) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 47. حيث نسب القاضي بعثتهما سنة (145هـ) للإمام جعفر الصادق (ت 148)، وهو مستبعد لكون الصادق منكفئا على نفسه. وانظر المليي، تاريخ الجزائر، ج 2 ص 132. تاريخ الجزائر العام، ج 1 ص 232.
(6) أبو عبد الله الحسين بن أحمد الملقب بالمعلم أصله صنعاني، دخل المغرب ودعا لعبد الله المهدي في بلاد كتامة سنة (286)، ثم انطلق من قلعة إيكجان بسطيف ودخل ميلة ثم القيروان، وطرد منها الأغالبة، واستخلص عبيد الله المهدي من سجلماسة ليعلنه إماما، قتله هذا الأخير مع أخيه أبي العباس المخطوم سنة (298هـ). انظر. الكامل، (حوادث 296)، ج 6 ص 601. وفيات الأعيان، رقم (199)، ج 2 ص 165 البداية والنهاية، ج 11 ص 180. الاستقصا، ج 1 ص 238.

من تأسيس الدولة الفاطمية من بلاد كتامة بالجزائر، وبأشر عملاً دعويًا وتعليميًا، حيث تتلمذ له أكثر من أربعمئة طالب من قبيلة كتامة⁽¹⁾ حيث خرجت جيوشهم لتقضي تبعاً على الدول الرستمية بتيهت، ثم انعطفت شرقاً لإزالة دولة الأغالبة، وترسيم الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلي، وقد تم لهم الأمر بالقضاء نحائياً على الأغالبة، ثم زحف الداعي أبو عبد الله بجيوشه على الدولة الصفيرية بسجلماسة، فاستنقذ سيده عبيد الله المهدي وولده أبا القاسم من سجنهما، وجاء بهما إلى تونس، حيث تم إعلان الخلافة الفاطمية على يد عبيد الله المهدي سنة (297هـ)⁽²⁾. والذي استقر برفادة، ثم بنى مدينة المهديّة، وبها توفي سنة (322هـ)، بعدما محاً وهدم كل قصور الأغالبة وآثارهم ورسومهم⁽³⁾.

أحداث	سنة الوفاة	سنة الولاية	خلفاء الفاطميين بإفريقية
التأسيس، قتل الداعي الشيعي.	322	296	المهدي عبيد الله
ثورة أبي يزيد (332)	334	322	القائم محمد أبو القاسم
القضاء على ثورة أبي يزيد (336)	341	334	المنصور أبو العباس إسماعيل
انتقل إلى مصر سنة (362)	365	341	المعز لدين الله أبو تميم

واجه المشروع الإسماعيلي عقابيل كثيرة، وأهمها رفض المكون المالكي للانحراف العقدي والتهجم الدائم على الصحابة، فقد كان الإرهاب المؤسسي كبيراً، ووصف عياض ذلك: "كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد، في حالة شديدة من الاهتمام والتستر. كأنهم ذمة. تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة. ولما أظهر بنو عبيد أمرهم، ونصبوا حسيناً الأعمى السبب لعنه الله تعالى، في الأسواق للسب بأسجاعٍ لُقِّنها. يوصل منها إلى سب النبي صلى الله عليه وسلم، في ألفاظ حُفظها. كقوله لعنه الله: العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى"⁽⁴⁾. وغير ذلك. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر، على أبواب الحوانيت، عليها قرطيس معلقة، مكتوب فيها أسماء الصحابة. اشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل، ومُتَّئ به، وذلك في أيام الثالث من بني عبيد، وهو إسماعيل الملقب بالمنصور"⁽⁵⁾.

تميزت مقاومة أهل السنة لهذا التيار التحريفي بمستويين أحدهما عملي جهادي قام به الفقهاء في تأليب الناس ضد السلطة، بل والمشاركة في الثورة ضدها، كما حصل من تأييدهم لثورة صاحب الحمار أبي يزيد بن فندين الإباضي النكاري الذي انخرط معه بقية الإباضية الوهبية والخلفية والنفائية⁽⁶⁾.

(1) أبو زكريا، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص 168.

(2) الكعك، نفسه، ص 155. الملي، نفسه، ج 2 ص 137.

(3) الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 22.

(4) ربما في النقل تصحيف أو خطأ، فالفاطميون يشرعون دولتهم بالانتساب لفاطمة، وهي من أهل الكساء، فمحال أن يقع اللعن عليها. وأما لعن من في الغار فالمتصور به أبا بكر الصديق، ولكن عياضاً أشار إلى أن هذا اللعن يتوصل به إلى ذات النبي الشريفة عياضاً بالله.

(5) عياض، ترتيب المدارك، (ترجمة الفقيه المسمي)، ج 5 ص 303.

(6) انظر ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 162. محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، ص 237.

لقي المالكية العنت الشديد من القتل والمصادرة والنفي، حتى إن كثيرين قضوا في دار النحر والتعذيب. والمصنفات طافحة بهذه الجهاد الذي أتى أكله في حفظ عقائد العامة من تدليس وتلبيس الشيعة الإسماعيليين. وفي وصف تلك المعركة الجائرة التي استعمل فيها سيف السلطة ضد أهل السنة ما قاله أبو الحسن القابسي المالكي: "إن الذين قتلهم عبيد الله - الفاطمي - وبنوه أربعة آلاف في دار البحر في العذاب من عالم وعابد ليردوهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت"⁽¹⁾. واجه فقهاء المالكية ذلك العسف بكل الطرق الممكنة، وخاصة الكتابة والمناظرة، وتربية العامة على الاستمسك بالقرآن والسنة "لأنه عندما برز قرن التشيع الإسماعيلي في الدولة الفاطمية اتخذت المعركة منحى آخر في الدفاع عن النص القرآني وإثبات تواتره وعدم تحريفه كما يدعي الشيعة، وخوض معركة عدالة الصحابة وصدقهم، أما الأهم في القضية فهو الهجوم والنقض للتأويلات الباطنية لظواهر القرآن التي بالغ فيها الشيعة الإسماعيليون، وجعلوها من أركان العقائد، فحرفوا بذلك عديد النصوص لتستقيم مع عقائدهم الباطلة في عصمة الأئمة، وغير ذلك من التشريعات المنحرفة كزواج المتعة، والزيادة في الآذان، ومخالفة المأثور من ميراث البنات"⁽²⁾. وكذا منع صلاة التراويح، وكان أهل السنة يتعمدون مخالفتهم في دخول رمضان، فلا يصومون يوم الشك خلافا لهم⁽³⁾.

تحالف المالكية⁽⁴⁾ والإباضية في ثورة أبي يزيد الإباضي النكاري المحتسب الملقب بصاحب الحمار (ت 336هـ)⁽⁵⁾، والذي قاد أعنف ثورة آنذاك، كادت تعصف بالدولة وتنتهيها، حتى إنه سيطر على القيروان، وحاصر العاصمة المهدية، وعلى الرغم من هزيمته، فقد ظلت ثورة أتباعه من النكار وحلفائهم مشتعلة بالأوراس⁽⁶⁾ إلى أن قضى عليها بلقين بن زيري بأمر من المعز الفاطمي قرب باغاي، وذلك سنة (349هـ)⁽⁷⁾.

الانقلاب المذهبي:

من المعلوم أن البدايات الفعلية لانحسار الإسماعيلية كان بعد رحيل السلطة الفاطمية إلى القاهرة عقب فتحها سنة (358هـ)⁽⁸⁾، ومن هنا بزغ الأمل وتجدد في التخلص من عبئ المذهب الإسماعيلي الذي كانت له السوابق المشينة في فرض نفسه بأساليب الترغيب والترهيب، فترعرعت المقاومة من تلامذة مدرسة القيروان، وتلاحم ذلك مع تشوف السلطة

(1) الدباغ، معالم الإيمان، ج 3 ص 35. المجذوب، الصراع المذهبي بإفريقية ص 187.

(2) محمد عبد الحليم بيشي، جهود المغاربة في الانتصار للنص القرآني، ص 33.

(3) انظر ابن رشيقي، أمّودج الزمان، (ترجمة الشاعر المصاحفي) ص 133.

(4) وخاصة من الفقيه الممسي الذي قتل في الثورة. انظر ترتيب المدارك، ج 5 ص 306.

(5) يتهمه كثير من المؤرخين بالعنف والتقتيل وسفك الدماء، وقد أرهقت ثورته البلاد، ويتحامل عليه مؤرخو الوهبة، فيذكرون أن ما خربه يزيد على ثلاثين ألف قرية، وأن المفسدين ثلاثة "شداد بن عاد، وفرعون ذو الأوتاد، ومخلد ابن كيداد". وقد أتم أبو يزيد مشروع صاحبه أبي عمار عبد الحميد بن عبد الله الحجري الأعمى الذي سعى لإنشاء إمارة في الأوراس منشقة عن دولة الرستميّين. انظر سير الأئمة، ص 176. وانظر: أبو عبد الله الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 31. وعلى الرغم من ذلك ينصفه الشيخ سليمان بن داود العطاوي في كتابه، ثورة أبي يزيد. ثورة لإعلاء كلمة الله.

(6) حيث قتل علي بن أحمد بن حمدون حاكم المسيلة والزاب في الثورة المستمرة التي قادها أبو أيوب بن أبي يزيد النكاري، وتولى بعده ابنه أبو علي بن جعفر حاكما على المسيلة مدة (334-360هـ). انظر عبد الرحمان الجليلي، نفسه، ج 1 ص 315.

(7) انظر الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 48. الملي، نفسه، ج 2 ص 149.

(8) انظر أخبار ملوك بني عبيد، ص 50.

الزيرية للاستقلال عن مصر أيام المعز بن باديس⁽¹⁾، فبدأ مشروع التطهير المذهبي للمذهب الشيعي، واتخذ أساليب كثيرة، لم يمكن من أقلها الضرب بقوة، والذهاب إلى الانتصار للملكية، فلم يبق للإسماعيلية كبير نفوذ، أو ظهور مذهبي إلا في عاصمتها السابقة، وبعض مواطن كتامة، وبعض واحات قسطيلية كنفطة" وجميع أهلها شيعة، وتسمى الكوفة الصغرى" بالجريد التونسي، كما هو توصيف كتابات البلدان⁽²⁾.

وكان الانقلاب المذهبي قد بدأ من المغرب الأوسط (الجزائر)، ثم تلتها بعدة مدة تونس، ويمكن إيجاز ذلك التحول المذهبي في الآتي:

1- الجزائر: من المعلوم أن الجزائر لم تكن خالصة كلها للفاطميين عدا الشرق وأجزاء من الوسط وبلاد الزاب، وأما الغرب فظل في مد وجزر بين إمارته المحلية ودولة الأدارسة ثم موسى بن أبي العافية بالمغرب، فقد أرسل عبيد الله المهدي مصالة بن حبوس سنة (308) مكتسحا المغرب، ولكن إمارة بني خزر الزناتية ظلت معتصمة بتلمسان، إلى أن طردهم أبو القاسم بن المهدي سنة (315هـ)، وعاد ليؤسس مدينة الحمادية (المسيلة حاليا) وحكمها أبو الحسن علي بن حمدون، وصارت هي العاصمة بدلا من طينة⁽³⁾.

ولكن المذهب الشيعي لم يكن بالقوة التي كان عليها بتونس، فقد انتقل أركانه وحماته من قبيلة كتامة إلى دواوين الدولة بتونس ثم مصر، مما جعل الجو يخلو لزعامات علمية مالكية ملأت الفراغ، ثم جاء الانقلاب الفكري الذي مهد له علماء الزاب والحمادية وميلة وغيرهم مع حماد بن بلكين (395-419)، الذي كان لتلمذه في القيروان أثر في انصرافه عن ولائه السابق للفاطميين، لأنه "قرأ الفقه في القيروان ونظر في كتب الجدل"⁽⁴⁾. وتساوق ذلك مع رفضه التخلي عن قسنطينة وتقيست لابن عمه المعز بن باديس بطلب من أبيه باديس، "فأبى حماد وخالف دعوة باديس، وقتل الراضة وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين ونبذ طاعة العبيديين جملة، وراجع دعوة آل العباس، وذلك سنة خمس وأربعمائة"⁽⁵⁾، وعليه خلع حماد بيعة الفاطميين، ودعا للعباسيين، ودخل في صراع مع الزيريين بتونس، حيث انهزم أمامهم سنة (405)، ثم كان الصلح العام سنة (408هـ)⁽⁶⁾.

قام حماد برسم سياسة لمسح المذهب الإسماعيلي، وصلت في أحيان إلى التقتيل والتهجير في المغرب الأوسط، وانتقلت عدواها إلى تونس والمهدية والقيروان، ولكن عنفها الأشد كان في الجزائر حيث استأصل بقية الإسماعيليين في مدن

(1) تولى حكم الدولة بعد: زيري بن مناد(360هـ)، ثم ابنه بلقين (373هـ)، ثم ابنه المنصور(386هـ)، ثم ابنه باديس (406)، ثم جاء المعز (454هـ). انظر الملي، تاريخ الجزائر، ج 2 ص 163.

(2) الحميري ابن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 578.

(3) الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 22. الكعك، نفسه، ص 158.

(4) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2 ص 328. وعلى الرغم من ذلك فقد كان مسرفا في الدماء جبارا، سبقت منه سوابق مشينة كاستباحة مدينتي باجة ودكمة. انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1 ص 264.

(5) تاريخ ابن خلدون، ج 6 ص 228.

(6) الكعك، نفسه، ص 175.

باغاي والأوراس، ومنهم الشاعر ميمون بن عبد الله الهواري سنة (409هـ)⁽¹⁾، والشاعر علي بن سعيد ابن القيني الذي هرب من تونس ولجأ إلى باغاي فقتل بها (409هـ)⁽²⁾، وأيضا الشاعر إسحاق بن إبراهيم الرافضي الذي قتل (420هـ)⁽³⁾.
2- تونس: وذلك في بداية عهد المعز بن باديس (406-454هـ)، والذي باشر الانفصال عن دولة مصر، وبدأ حملة تطهير في (16 محرم 406هـ)، حيث اشتط في اجتثاث المذهب الشيعي، ونسوق هنا نصا لابن عذارى: "وكان بمدينة القيروان قوم بحومة تعرف بدرب المعلى، يتسترون بمذهب الشيعة، من شرار الأمة، فانصرف العامة إليهم من نورهم، فقتلوا منهم خلقا رجالا ونساء، وانبسطت أيدي العامة على الشيعة، ونهبت دورهم وأمواهم وتفاقم الأمر، وانتهى إلى البلدان، فقتل منهم خلق كثير. وقتل من لم يعرف مذهبه بالشهية لهم. ولجأ من بقى بالمهدية منه إلى المسجد الجامع، فقتلوا به عن آخرهم رجالا ونساء"⁽⁴⁾.

والظاهر أن الناس فرحوا بذلك، واشترك بعضهم في تلك الأعمال الشنيعة من القتل والنهب، مما يمكن أن يوصف بسعار مذهبي نتيجة تراكم الأحقاد، حيث راجت أشعار وأجزاء من الشيعة الموتورين نحو قولهم⁽⁵⁾: الجهاد الجهاد قوموا حمية..... فقد تبادت في هرما المالكية

وقد رافق بعض الشعراء تلك الحملة، وأرخوا لها فيما يمكن تسميته بأدب قتل الرافضة⁽⁶⁾، ومن ذلك نماذج كثيرة نقتصر منها على مثل قصيدة عتيق بن محمد أبو بكر الوراق التميمي⁽⁷⁾:

أخذنا لأهل الغدر منهم إغارة.. عليهم فما أبقت ولا السيف ما أبقي

وقام لأم المؤمنين بحقها..... بنوها فما أبقوا لهم عندها حقا

وقصيدة ميمية لابن زنجي الحسن بن علي الكاتب، منبئة عن عمق الفصام النفسي والمذهبي، ومنه⁽⁸⁾:

وكنّا نظن الكفر في جاهلية..... فتعسا لكل جاهليّ مخضم

يقولون مؤلّاهم عليّ وإثمهم... لأعظم بغضا فيه من آل ملجم

سببتم عتيقا والإمامين بعده... فلم تعنفوا يؤم الحريق المضرم

وسؤتم نبي الله في خير أهله..... وأفضل بكر في النساء وأيم

(1) ابن رشيقي القيرواني، أمودج الزمان في شعراء القيروان، ص 419. وذكر بأن أبا ميمون ليس بهواري ولكنه من مسالمة تونس، أي من يهودها أو نصاراها الذين تظاهروا بالإسلام، والظاهر أنهم تداثروا بالشيعة، وفي الصلة بين دينهم القديم والتمذهب الجديد يقول ابن عذارى: "وذلك لما ظهرت الكتب التي وجدت في ديار المسالمة، كان فيها من الكفر والتعطيل للشريعة وإباحة المحارم شيء كثير"، البيان المغرب، ج 1 ص 268.

(2) ابن رشيقي القيرواني، أمودج الزمان في شعراء القيروان، ص 288.

(3) ابن رشيقي القيرواني، المصدر نفسه، ص 78.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 1 ص 268.

(5) ابن رشيقي القيرواني، أمودج الزمان، ص 287. ونسبت للشاعر أبي الحسن علي بن سعيد القيني، وحسب ابن رشيقي ففيها كفر وسب للنبي وأزواجه وصحابته، وقال بيان هناك من ينسبها لعمار بن جميل، أو ابن المرآف.

(6) انظر ابن رشيقي القيرواني، أمودج الزمان، (ترجمة القفصي البزاز)، ص 280. (ترجمة قرهب الخراعي)، ص 329.

(7) انظر ابن رشيقي القيرواني، أمودج الزمان، ص 251.

(8) ابن رشيقي القيرواني، أمودج الزمان في شعراء القيروان، ص 108.

فكم عاثرٍ مِنْكُمْ إِذَا صَافِحَ الثرى ... من الذعر فُلْنَا لِيَدَيْنِ وَلُفْمٍ
فَلَا نَفَقُ فِي الأَرْضِ أَحْفَى مَكَانِكُمْ ... وَلَا شَاهِقٌ يرقى إِلَيْهِ بِسَلْمٍ
لقد رفضتكم كل أرض وبقعة ... وقد صرخت مِنْكُمْ بِقَاعِ جَهَنَّمَ
فَدُوقُوا كَمَا ذُقْنَاهُ أَيَّامَ كَفْرِكُمْ ... من الغيظِ فِي أكْبَادِنَا وَالتَّأَلْمِ

وهكذا وبعد قرابة قرن كامل من العسف والاضطهاد انمحي المذهب بمواقفه كلية من المغرب الأوسط الذي انطلق منه ابتداء، ليحل في مواضع نفوذه السابقة المذهب المالكي، بما أظهره علماءه وعباده من مقاومة منقطعة النظر بالصرير والمصابرة والثورة، وبالمناظرة والتربية والتعليم والشد على أيدي العامة المغلوبين.

المبحث الخامس: المذهب الزيدي.

المذهب الذي رافق العلويين الفارين من وقعة فخ سنة (169)، والتي هي حلقة من سلسلة الثورات التي أشعلها العلويون ضد السلطين الأموية والعباسية، وخاصة ثورة النفس الزكية بالحجاز وأخيه إبراهيم بالعراق سنة (145هـ)⁽¹⁾، وقاد هذه الثورة الأخيرة الحسين بن علي بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، ومعه أبناء عبد الله الكامل يحي وسليمان وإدريس بالحجاز، وبعد الوقعة القاتلة في فخ، والتي نجم عنها فرار من بقي من زعماء العلويين الحسينيين إلى أصقاع المغرب والديلم بخرسان، إذ تسلل إدريس وأخوه سليمان إلى المغرب حيث تنحسر سلطة العباسيين، فأسس الأول دولة الأدارسة، والثاني إمارة أخرى بتلمسان.

يقول البكري: " نزل إدريس على إسحاق الأوربي المعتزلي فتابعه على مذهبه"⁽²⁾، كما ذكر ابن أبي زرع: " نزل إدريس على إسحاق الأوربي المعتزلي، فأقبل عليه إسحاق وأكرمه وبالغ في أمره فأظهر له المولى إدريس أمره وعرفه بنفسه، فوافقه على حاله وأنزله داره، وتولى خدمته والقيام بشؤونه"⁽³⁾، وأعلن الدولة سنة (172هـ). ولكن سليمان بن جرير الذي كان رأساً في الزيدية غدر به كما هو معروف، فسقاه السمّ بتدبير من العباسيين أيام هارون الرشيد⁽⁴⁾.

وعلى منواله تمكن أبناء سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي⁽⁵⁾ من تأسيس إمارات محلية في مختلف مدن المغرب الأوسط، وخاصة تلمسان قاعدتهم الكبرى به⁽⁶⁾، في مليانة، والمتيجة (بوفاريك)، وبرج

(1) تاريخ الطبري، ج 7 ص 552. ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 109. عمارة محمد، مسلمون ثوار، ص 179.

(2) البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 799.

(3) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 22. السلاوي الناصري، الاستقصا، ج 1 ص 211. ابن عذراي المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 1 ص 210.

(4) انظر البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 801.

(5) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 39. وهو والد كل من محمد النفس الزكية، إبراهيم، موسى الجون، يحي صاحب الديلم، إدريس، سليمان.

(6) انظر اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 351. وحسبه فهي إمارة علوية حكمها: "الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب".

حمزة (البويرة) في الوسط، وجرواة بالأوراس، وإمارة الهاز قرب المسيلة⁽¹⁾، وتقدمت وأرشقول بالغرب⁽²⁾، وتنس التي أسقطها الفاطميون سنة (342هـ)⁽³⁾، وإمارة مذكور لبني محمد بن سليمان، وعاصمتها تطلّاس (سعيدة)، وغالب أهلها من مطماطة⁽⁴⁾.

صحيح أن الدولة الإدريسية مالت فقهاها لمذهب مالك نتيجة التأثير الأندلسي، وخاصة بعد لجوء بعض فقهاء الأندلس للمغرب بعد معركة الرض سنة (202هـ) أيام الحكم بن هشام الأموي⁽⁵⁾، كما أن مالكا كان يناصر الثورة الزيدية التي قادها محمد النفس الزكية، وقد امتحن وضرب في فتواه الشهيرة بعدم لزوم أيمان الإكراه، ومن باب التبعية بيعة الإكراه التي أخذت للعباسيين⁽⁶⁾. وهو ما يؤكد عبد الرحمان الجليلي من انتصار إدريس لمالك ومذهبه الفقهي⁽⁷⁾.

لم يكن التزويد مذهباً مكيناً، فأكثر مقالاته الدائرة في المغرب متعلقة بالسياسية والحكم، وأما الآراء الاعتقادية التي استقر عليه المذهب المتأخر، فلا نجد لها أثراً فيما وصلنا، وإن كانت متشابكة مع الاعتزال، وهو مذهب له أنصاره كما أسلفنا. وهو ذات توصيف قدامة بن جعفر (ت339هـ): "فأما وراء أفريقية فبلاد تاهرت .. وهي في يد صاحب الإباضية، وهم ضرب من الخوارج، ووراء تاهرت مسيرة أربعة وعشرين يوماً بلد المعتزلة وعليهم رئيس عادل وعدلهم فائض وسيرتهم حميدة، ودارهم طنجة ونواحيها والمستولي عليها في هذا الوقت، ولد محمد بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن"⁽⁸⁾.

وعلى الرغم من ذلك فإن الاعتزال استمر في بعض الإمارات السليمانية الزيدية في المغرب الأوسط وفي بعض الإمارات الزناتية كإمارة معزوز بن طالوت وأبي حفص الزناتي⁽⁹⁾. ولكن ذلك كله سيخبرو أمام المد المالكي الذي اكتسح مدن المغرب الأوسط بعد رحيل الفاطميين.

المبحث السادس: المذهب السني المالكي.

وهو المذهب الذي ستكتب له السيادة التامة على كل أقطار المغرب الإسلامي، بعوامل كثيرة أهمها ما أجلاه ابن خلدون: "وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس. وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره

(1) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 191.

(2) انظر المسالك والممالك، ج 2 ص 747. ويقول: "ونزلها عيسى بن محمد بن سليمان ووليها وتوفي فيها سنة (295هـ)، وولد له فيها إبراهيم بن عيسى الأرشقولي ووليها بعده (ابنه يحيى بن إبراهيم) وهو الذي حبسه أبو عبد الله الشيعي سنة (323هـ). وإبراهيم بن عيسى دعا للأمويين وأوفد إلى قرطبة معلناً ولاءه للخليفة الناصر سنة (316هـ) وهو ما يستلزم انعطافاً رسمياً إلى المالكية مذهب الأندلسيين. انظر تاريخ ابن خلدون، ج 4 ص 181.

(3) بملولي سليمان، الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط، صص 103-114.

(4) الكعك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 121.

(5) ابن عذراى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ص 71.

(6) عياض، ترتيب المدارك، ج 2 ص 130. أبو زهرة محمد، مالك حياته وعصره، ص 57.

(7) الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج 1 ص 186؟

(8) قدامة بن جعفر، كتاب الجراج وصناعة الكتابة، ص 200.

(9) عبد الرحمان بشير، الفقيه والسلطان الفقهاء والاعتزال والدولة في المغرب الإسلامي. ص 116.

إلا في القليل لما أنّ رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقترضوا عن الأخذ عن علماء المدينة⁽¹⁾.

وقد ذكر عياض تطور الخريطة المذهبية إلى زمنه: "وأما أفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد وأبن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفتشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا، وكان بالقيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي ودخلها شيء من مذهب داوود، ولكن الغالب إذ ذاك مذهب المدينة والكوفة، وكان الظهور في دولة بني عبيد لمذهب الكوفيين لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل، فكان فيهم القضاء والرئاسة، وتشرق قومهم منهم لمسرتهم واصطياداً لديناهم، وأخرجوا أضغاثهم عن المدنيين، فجرت على المالكية في تلك المدة محن، ولكنهم مع ذلك كثير. والعامّة تقتدي بهم والناشئ فيهم ظاهر إلى أن ضعفت دولة بني عبيد بها من لدن فتنة أبي يزيد الخارجي، فظفروا وأفشوا علمهم وصنفوا المصنفات الجليلة، وقدم منهم جلة طار ذكرهم بأقطار الأرض، ولم يزل الأمر على ذلك إلى خربت القيروان. وأهلها وجهاتها وسائر بلاد المغرب مطبقة على هذا المذهب، مجمعة عليه، لا يعرف لغيره قائم"⁽²⁾.

بالنسبة للغرب الأوسط فإنه يمكننا أن نتلمس الإشارات إلى وجود المذهب منذ بدايات القرن الثالث في الآتي:
أ- تلمسان: مالكية منذ نهايات الثالث الهجري، يقول البكري: "لم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك"⁽³⁾. وهي ملاحظة موضوعية من البكري لا تنفي احتضان تلمسان الأولى لمثل مذاهب الخوارج والزيدية وحتى الواصلية أيام الإمارة السليمانية، ولكنها تفيد بسرعة الانقلاب المذهبي للسنية المالكية، وما يؤكد هذا هو تصدر الإمام الدوايدي التدريس بها ونيله الإمامة المبكرة حيث توفي سنة (402هـ).

ب- تيهرت: يذكر ابن الصغير أن بها مسجدا للقرويين⁽⁴⁾ - أي القيروانيين -، كما يذكر أبو زكريا أن الداعية الحجازي أبا عبد الله الفاطمي الملقب بالمعلم (قتل بقرادة سنة 298) لما اقترب منها: "خرج إليه وجوه أهلها من المخالفين - السنة - والشيعية والواصلية ومن بها من الصفرية وتلقوه، وشكوا إليه الإمارة، ووعدوه العون من أنفسهم على جميع الرستميين"⁽⁵⁾. والأكد أن أبا زكريا يتكلم عن مخالفتي الإباضية الأصلاء أي المالكية. إذ هي لغة المكتوبات الإباضية في القرن الخامس.

ج- الزاب: يشير البكري إلى وجود سني بها: "إلى مدن بنطوس وهي ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، وفي كل مدينة جامع. فالاثنتان لأهل السنة، والثالث لقوم من الخوارج يعرفون بالواصلية إباضية"⁽⁶⁾.

(1) تاريخ ابن خلدون، ج 1 ص 568.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 26

(3) المسالك والممالك، ج 2 ص 746.

(4) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص 32.

(5) أبو زكريا، سير الأئمة، ص 169.

(6) المسالك والممالك، ج 2 ص 740. وكانت بنطوس وسدراتة من المدن التي أمدت ثورة أبي يزيد بالمؤن والرجال.

د- الجريد المتاخم للزاب: بدأ المذهب المالكي يتوسع فيه على الرغم من وجود جماعات إباضية ممتدة فيه، ونقرأ هنا إشارة من اليعقوبي: "بنو دمر من زناتة في بلد واسع وهم شراة كلهم عليهم رئيس منهم يقال له مضادف بن جرتيل... إلى حصن ابن كرام وليس أهله بشراة، ولكنهم جماعة"⁽¹⁾ -أي من أهل السنة-

ه- القلعة وطبنة: فقد انتشر فيهما المذهب المالكي وبقوة نتيجة علاقات علمائهما بمدرسة القيروان، ولدينا نموذج شهير هو الإمام أبو القاسم الديباجي صاحب التسديد شرح التمهيد للباقلاني، والذي انتشرت به الأشعرية، وكان له تلامذة مؤثرون من أشهرهم أبو القاسم النحوي صاحب المنفرجة⁽²⁾.

هناك أسباب كثيرة لانتشار المذهب السني المالكي-الحامل لعقيدة أهل السنة- في المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري، والتي مهدت لانتشار التسنن، ومن تم دخول الأشعرية وبسط سيادتها المعرفية على جل الساكنة في شمال إفريقيا، ومنها: أ- الدفق المشرقي السياسي المتوالي من الأمويين والعباسيين في تفكيك حركات الخوارج التي كانت مستعرة في طول البلاد، حيث لم تتوقف الثورات التي امتزج بعضها بالنفس العرقي، والتي أرهجت الساكنة وضعفت الأمن وأخلت بالاقتصاد والمعاش والعمران، وقد بدأ الهدوء في إفريقية في ولاية يزيد بن حاتم (155-170هـ). حيث ركزت ريح الخوارج، وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال، كما هو توصيف ابن خلدون والساوي⁽³⁾.

ب- انحسار المشروع الإباضي، وفشله في تحقيق المقالات السياسية للخوارج في الشورى، فقد انتقل الحكم وتداولته أسرة واحدة هي أسرة بني رستم، ثم جاءت الهزيمة أمام المشروع الفاطمي، والذي لم يستغ كثير من الساكنة مقالاته العقديّة المنتقصة من الصحابة، فكان المالكية خير مجيب لأشواق الناس الروحية، وتعلقهم بميراث السلف وأهل المدينة وشيخها القدوة الزكي الإمام مالك.

ج- التمهيد الزيدي، فقد فرش الأشراف السليمانيون والأدارسة الأرضية لقبول مذهب مالك، باعتباره مناصرا لدعوتهم في الحجاز وناقما على بني العباس، فكانت الإمارات السليمانية زيدية في السياسة والعقيدة، ومالكية في الفقه والقضاء.

د- إشعاع القيروان العلمي القوي والتي كانت منارة لنشر المذهب المالكي خاصة مع سحنون بن سعيد التنوخي. وقد دون مؤرخو القيروان أحوالا باهرة لحركة العلم والتلقين والمدارس للمدونة والموطأ وغيرها، وشواهد ذلك كثيرة في طبقات أبي العرب، أو رياض النفوس للمالكي.

ج- تأثير الأندلس الأموية، والتي عضت بالنواجذ على المذهب المالكي، وكانت العلاقات العلمية بينها وبين مدن الغرب الجزائري، حتى أنها حجمت الوجود الصفري، والتواصل العلمي زاهر، والشواهد على ذلك لا تحصى⁽⁴⁾

(1) اليعقوبي، البلدان، ص 191.

(2) ترتيب المدارك، ج 8 ص 109.

(3) تاريخ ابن خلدون، ج 7 ص 17. الساوي، الاستقصاء، ج 1 ص 189.

(4) محمد عبد الحليم بيشي، الدور العلمي للمغرب الأوسط في الأندلس التأثير والتأثر، ملتقى المعرفة والمرجعية الدينية في بلدان المغرب وإفريقيا، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2016، ص 93.

هـ-القطعية الزيرية مع الفاطميين سنة (443هـ)، والتي تأخرت عن الانقلاب المذهبي الحمادي، ولكن أثرها جاء من ثقل المركز في تونس، فكان الإنهاء السياسي ثم المعرفي للمذهب الإسماعيلي الذي رفضه غالبية السكان.

الخاتمة:

يعسر الإلمام بتفاصيل الوجود المذهبي العقدي في المغرب الأوسط في القرون الثلاثة الأولى التي تلت الفتح الإسلامي، ومرد الأمر غياب الشواهد الكافية لذلك، خاصة مع قلة التأليف آنذاك، أو اندثار عديد المكتوبات لتلك الفترة، ولكنه يمكن تجاوز العقبات المعرفية باستثمار المدونات الفقهية المتأخرة، وكذا كتب الطبقات والأنساب، والرحلات والبلدان والتاريخ لرسم صورة مقارنة للحقيقة التاريخية التي تزداد رصانة مع الشواهد السياسية الكثيرة من قيام دول ظهرت بعض المذاهب العقدية كالإباضية والإسماعيلية، وأخيرا المالكية.

والذي يخلص إليه من هذا البحث هو التماهي السريع الذي حصل في تلقف الآراء العقدية والسياسية في المشرق ابتداء والمغرب تباعا، مما يدل على سرعة انسياب الثقافة الإسلامية، وكثرة العلائق وسبل التواصل بين الجناحين بفعل عوامل الهجرة والحج والرحلة في طلب العلم، وانفتاح الديار الإسلامية الرحبة.

كما مهدت الأوضاع السياسية المتوترة نتيجة الحيدة عن سلوك الخلفاء الراشدين من قبل بعض الولاة إلى احتضان المغرب الأوسط لمذاهب نائمة على السلط القائمة كالإباضية والصفيرية والاعتزال، وأخيرا الإسماعيلية، وهو ما تلاشى بعد حين بفعل التقاؤل والجدل وغياب الظهير السياسي أو انحساره كما هو الأمر مع المعتزلة والصفيرية. وأهم الأسباب هو التأثير البالغ للمذهب المالكي المنشد إلى مقالات أهل السنة والجماعة المجافية للفتن والثورات غير الحكيمة، وهو ما هيا المجال لاحتضان الأشعرية مذهباً عقدياً، مع استصحاب خفوت الحدة المذهبية حيال المذاهب المعتدلة كالإباضية التي لم ينلها العسف أو التجريف المذهبي إلا لماماً. وهو ما قاد إلى شبه واحدة مذهبية سيماها التعايش التي لا نزال نحيها لحد الساعة. ومما يوصي به البحث بعد هذا التطواف المجلل لخارطة المذاهب العقدية في المغرب الأوسط ما يأتي:

-استثمار كتب البلدان والتراجم والطبقات والرحلات والإجازات والنوازل في درس المذاهب الفقهية.

-الكتابة المفردة في هذه المذاهب ومقالاتها وآثارها وتأثيرها في الثقافة السارية.

- تعميق الدرس في حقل الدراسات العقدية المذهبية والكشف عن أوجه التعايش بين المذاهب الإسلامية.

المصادر والمراجع.

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1997.
- ابن ادريسو مصطفى، الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الرابع الهجر، غرداية، نشر جمعية التراث، 2003.
- اطفيش محمد بن يوسف، الرسالة الشافية في بعض التواريخ- طبع الحاج بكير بن الحاج قاسم، الجزائر، د،ت.
- بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2، القرارة، نشر جمعية التراث، 1993.
- البرادي أبو القاسم، الجواهر المنتقاة، تحقيق أحمد بن سعود السباي، ط 1، لندن، دار الحكمة، 2014.
- بشير عبد الرحمان، الفقيه والسلطان الفقهاء والاعتزال والدولة في المغرب الإسلامي، ط1، القاهرة، دار عين للدراسات، 1010.
- البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992.

- ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط 2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981.
- بهلولي سليمان، الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط (173-342هـ) الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011.
- بيشي محمد عبد الحليم، جهود المغاربة في الانتصار للنص القرآني، ط 1، الرياض، جامعة الملك سعود، منشورات كرسي القرآن الكريم وعلومه، 2012.
- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، الجزائر، دار الأمة، 2014.
- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار إحياء التراث العربي د-ت.
- ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ط 1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2001.
- ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر، دار المعارف، 1962.
- الحموي ياقوت، معجم البلدان، ط 2، بيروت، دار صادر، 1955.
- الحميري ابن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة الحياة، 1980.
- ابن حوقل الموصلية، صورة الأرض، بيروت، دار صادر، أفسست ليدن، 1938.
- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002.
- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، ط 2، بيروت، دار الفكر، 1988.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق يوسف علي طويل، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998.
- الدباغ أبو زيد الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل القبروان، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1426.
- ابن رشيقي القبرواني، نموذج الزمان في شعراء القبروان، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، تونس، الدار التونسية، 1986.
- الدرجميني أبو العباس، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، مطبعة البعث، 1974.
- دبوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ط 1، الجزائر، عالم المعرفة، 2013.
- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق بنمنصور، ط 2، الرباط، مطبعة الملكية، 1999.
- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.
- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، تونس، الدار التونسية للنشر، 1986.
- مفدي زكريا، أضواء على وادي ميزاب، تحقيق إبراهيم مجاز، ط 1، الجزائر، منشورات ألفا، 2010.
- أبو زهرة محمد، مالك حياته وعصره، ط 3، القاهرة، دار الفكر العربي، 1997.
- سالم عبد العزيز، تاريخ المغرب الكبير، بيروت، دار النهضة، 1981.
- سامعي إسماعيل، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى الخامس الهجري، الجزائر، دار الهدى، 2006.

- السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1997.
- الشماخي أبو العباس، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، ط 1، بيروت، دار المدار 2009.
- الشهرستاني أبو الفتح، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، بيروت، دار المعرفة، د-ت.
- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق إبراهيم بحاز ومحمد ناصر، الجزائر، المطبوعة الجميلة، 1986.
- الصنهاجي أبو عبد الله، أخبار ملوك بني عبيد، تحقيق جلول البدوي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- طالبي عمار، آراء الخوارج الكلامية مع تحقيق الموجز لأبي عمار الكافي، الجزائر، الشركة الوطنية، 1978.
- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، مصر، دار المعارف، 1967.
- ابن عذراى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنسال -3 أجزاء- وإحسان عباس-جزء4-). بيروت، دار الثقافة، د-ت.
- أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم اليافعي، ط 2، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
- عمارة محمد، مسلمون ثوار، ط 3، القاهرة، دار الشروق، 1988.
- عياض القاضي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق ابن تاويت الطنجي، عبد القادر الصحراوي، محمد بن شريفة، سعيد أحمد أعراب، ط 1، المغرب، مطبعة فضالة، 1983.
- قدامة بن جعفر، كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ط 1، بغداد، دار الرشيد، 1981.
- ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، بيروت، دار المعارف، ط 1، 1986.
- الكعكاك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر من العهد الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، 2003.
- المالكي أبو بكر، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم تحقيق بشير البكوش، ط 2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994.
- المحجوب عبد العزيز، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، ط 1، تونس، دار سحنون، 2008.
- مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوبايا، ط 1، المغرب، دار أبي رقرق، 2005.
- محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.
- معمر علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، الإباضية في ليبيا، مصر، مطابع الاستقلال، 1964.
- معمر علي يحيى، الإباضية في الجزائر، المطبعة العربية، غرداية، 1986.
- الميللي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د، ت.
- ناصر محمد، منهج الدعوة عند الإباضية، ط 2، غرداية، المطبعة العربية، 1997.
- النامي عمر خليفة، دراسات عن الإباضية، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001.
- النعمان القاضي، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشاوي، ط 2، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
- النوري حمو عيسى، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، قسنطينة، دار البعث،

- اليقوبي أحمد بن إسحاق، البلدان، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ.
المقالات والأطاريح:
- بحاز إبراهيم، الميزابيون المعتزلة قراءة جديدة لنصوص قديمة، الجزائر، مجلة الحياة، العدد 1، 1998.
- بيشي، محمد عبد الحليم، الاعتزال في الغرب الإسلامي، مجلة البحوث، جامعة الجزائر1، العدد 9، جوان 2016.
- بيشي محمد عبد الحليم، الدور العلمي للمغرب الأوسط في الأندلس التأثير والتأثر، الملتقى الدولي الخامس عقبة بن نافع، المعرفة والمرجعية الدينية في بلدان المغرب وإفريقيا، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2016م.
- شانيت العيفة، دولة بني مدرار بسجلماسة ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري، ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1990.